الفصل الخامس

فولتير الشيخ

١٧٥٨ — ١٧٧٨

١ — الإقطاعى الطيب

فى أكتوبر ١٧٥٨ اشترى فولتير ضيعة قديمة فى فرنيه ، فى مقاطعة جكس ، الواقعة على حدود سويسرة . ولم يلبث أن أضاف إليها أقطاعة تورنيه التى اشتراها لمدى الحياة ، وبهذا أصبح الآن من الناحية القانونية سيداً إقطاعياً ، وراح يوقع باسم « الكونت دتورنيه » فى الشئون القانونية ، وأبرز شعار نبالته على مدخل بيته وعلى آنيته الفضية » [1]

كان قد سكن فيللا دليس بجنيف منذ ١٧٥٥ ، ولعب دور المليونير الفليسوف المضياف فى لذة وفى استحسان من الناس ، ولكن المقال الوارد فى موسوعة دالامبير عن جنيف ، الذى أماط اللثام عن الهرطقات السرية التى يدين بها قساوستها ، عرض فولتير للاتهام بأنه وشى بهم لصديقه ، فلم يعد شخصا مرغوبا فيه على أرض سويسرة ، وراح يلتمس من حوله مسكنا آخر . وكانت فرنيه تقع فى فرنسا ، ولكنها لا تبعد عن جنيف أكثر من ثلاثة أميال ، هنالك يستطيع أن يخرج لسانه للقادة الكلفنيين ؛ ولو جدد القادة الكاثوليك فى باريس — على بعد ٢٥٠ ميلا — حملتهم لإعتقاله ، لاستطاع فى ظرف ساعة أن يعبر الحدود ، وخلال ذلك (١٧٥٨ — ١٧٧٠) كان صديقه الدوق دشوازيل يرأس الوزارة الفرنسية واشترى فرنيه باسم ابنة أخته مدام دنيس ، ربما اتقاء المصادرة إذا غيرت ريح السياسة اتجاهها ، لم يشترط عليها إلا أن تعترف به سيداً على الضيعة طوال حياته . وظلت فيللا دليس حتى عام ١٧٦٤

مسكنه الرئيسى ، وراح يعدل فى بيته بفرنيه على مهل ، وأخيراً انتقل إليه فى ذلك العام .

وكان البيت الفخم الجديد من الحجر ، ومن تصميم فولتير إلى حد كبير ، وبه أربع عشرة حجرة نوم . كتب يقول « إنه ليس قصرا ، ولكنه بيت ريفى فسيح ، تلحق به أرض تنتج الكثير من الدريس ، والقمح ، والتبن ، والشوفان. ولدى بلوطات فى استقامة أشجار الصنوبر تلمس رؤوسها السماء . »[٢] وأضافت تورنيه إلى أملاكه هذه قصرا ريفيا قديما ، ومزرعة ، ومخزنا للغلال ، ومرابط ، وحقولا ، وغابات ، وضمت مرابطه فى جملتها الخيول ، والثيران ، وخمسين بقرة ، ووسعت مخازنه كل حاصلات أرضه وبقى فيها مكان لمعاصر النبيذ ، وحيشان الدواجن ، وحظيرة للغنم ، وامتلأت المزرعة بطنين أربعمائة خلية نحل ، وجادت الأشجار بأخشاب تدفىء عظام السيد الإقطاعى من رياح الشتاء . واشترى وغرس الشجيرات ، وزرع شجيرات أكثر من نبتات صغيرة رباها فى مستنبتاته . ومد الحدائق والأفنية حول بيته حتى بلغ محيطها ثلاثة أميال ؛ وكانت تحوى أشجار الفاكهة ، والكروم ، وأنواعا كثيرة من الأزهار . هذه الأبنية ، والنباتات ، والحقول ، والنظار الثلاثون القائمون عليها — كل أولئك كان يشرف عليه بشخصه . هنا أيضا رضى رضى أنساه أن يموت ، شأنه حين دخلا فيللا دليس . فكتب إلى مدام دودفان يقول « أنى مدين بحياتى وصحتى للطريق الذى سلكته . ولو جرؤت لاعتقدت أننى حكيم ، لأننى سعيد جدا . »[٣]

وتسلطت مدام دنيس على الخدم والأضياف الثلاثين أو أكثر الذين عاشوا فى القصر الريفى بيد متفاوتة الإنصاف . وكانت طيبة القلب ، ولكنها حادة الطبع ، تحب المال أكثر قليلا من حبها لما عداه .... رمت خالها بالبخل ، ولكنه نفى التهمة ؛ على أى حال « نقل إليها شيئا فشيئا ، الجانب الأكبر من ثروته . »[٤] وكان قد أحبها طفلة ، ثم امرأة ، وطاب له الآن أن يتخذها قهرمانة له . وكانت تمثل فى المسرحيات التى يخرجها ، وأجادت التمثيل حتى كان يقارنها بكليرون . وأدار هذا المديح رأسها ، فعكفت على كتابة المسرحيات ولقى فولتير عنتا فى ثنيها عن عرضها على الناس . ثم أضجرتها حياة الريف

وهفت نفسها إلى باريس ؛ وكانت رغبة فولتير فى الترويح عنها بعض ما دفعه إلى دعوة هذه السلسلة الطويلة من الضيوف واحتمالها . ولم تكن تحب سكرتيره فاجنير ، ولكنها أغرمت بالأب آدم ، اليسوعى الشيخ الذى رحب به فولتير فى بيته غريما لطيفا فى لعبة الشطرنج ، والذى فاجأه ذات يوم عند قدمى الخادمة بربارة .[٥] ومرة ، ربما بسبب سماح دنيس للاهارب بالرحيل مصطحبا إحدى مخطوطات السيد ، أغضبت فولتير غضبا حمله على ردها إلى باريس بعد أن رتب لها معاشا سنويا قدره عشرون ألف فرنك[٦] . ولكن بعد ثمانية عشر شهرا انهار ، فتوسل إليها أن تعود .

وغدت فرنيه كعبة يحج إليها من يستطيعون الرحلة ويستطيبون التنوير . فأمها صغار الحكام كدوق فورتمبرج وناخب بالاتين ، والإقطاعيون كأمير لبن ودوق ريشليو وفيلار ، والأعيان كتشاواز جيمس فوكس ، وملتقطوا الأخبار كبيرتى وبوزويل ، والفاسقون مثل كازانوفا ؛ ومئات ممن هم أقل من هؤلاء شأنا . وكان يكذب كذبا مفضوحا إذا جاءه زوار لم يدعهم ؛ « قولوا لهم إننى مريض جدا » « قولوا لهم أننى مت » ، ولكن أحداً لم يصدق . كتب إلى المركيز دفيليت يقول « اللهم نجنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم . »[٧]

وما أن استقر به المقام فى فرنيه حتى ظهر بوزويل (٢٤ ديسمبر ١٧٦٤) وهو ما يزال متأثرا بزيارته لروسو . وبعث فولتير إليه بكلمة يقول إنه ما زال فى فراشه ولا يمكن إزعاجه . ولكن هذا لم يجد فى ثنى الاسكتلندى الملهوف ، فأصر على البقاء ولم يبرح مكانه حتى طلع عليه فولتير . وتحادثا مليا ، ثم خلا فولتير إلى مكتبه . وفى الغد كتب بوزويل إلى مدام دنيس من فندق فى جنيف يقول :

« يجب أن التمس منك ياسيدتى أن تعيرينى اهتمامك بأن تحصلى لى على صنيع كبير جداً من المسيو دفولتير . أريد أن أنال شرف العودة إلى فرنيه يوم الأربعاء أو الخميس . فأبواب هذه المدينة الوقور تغلق فى ساعة ... سخيفة جدا ، حتى ليضطر المرء إلى الرحيل بعد العشاء قبل أن يتاح لرب البيت الأشهر أن يطلع بمحياه على ضيوفه ...

فهل يسمح لى يا سيدتى بقضاء ليلة واحدة تحت سقف المسيو دفولتير؟ إننى اسكتلندى صلب العود شديد البأس ، ولك أن تصعدينى إلى أعلى وأبرد علية فى البيت ، بل أننى لن أرفض النوم على مقعدين فى حجرة نوم خادمتك »(٨)

وأمر فولتير أبنة أخته بأن يخبر الاسكتلندى أن يحضر ؛ وسيعد له فراش . فحضر فى ٢٧ ديسمبر ، وتحدث إلى فولتير بينما كان هذا يلعب الشطرنج ، وفتنه حديث السيد وشتائمه الإنجليزية ، ثم « أنزل مكانا أنيقا » فى « حجرة جميلة . »(٩) وفى الغد اضطلع بهداية فولتير إلى المسيحية القويمة ، وبعد قليل اضطر فولتير وقد أوشك على الاغماء أن يطلب هدنه . وبعد يوم ناقش بوزويل ديانه رب البيت مع الأب آدم ، الذى قال له « أننى أصلى من أجل المسيو دفولتير كل يوم .... من المؤسف أنه ليس مسيحيا . فإنه يملك الكثير من الفضائل المسيحية . له أجمل نفس ، وهو إنسان خير ، محسن ، ولكنه شديد التحامل على الدين المسيحى . »(١٠)

وكان فولتير يقدم لضيوفه الطعام ، والحكمة ، والنكتة ، والمسرحية ، ليرفه عنهم . وبنى قرب بيته مسرحا صغيرا وصفه جبون حين رآه عام ١٧٦٣ بأنه « أنيق جداً مصمم تصميما حسنا ، يقع إلى جوار كنيسته الصغيرة ، التى لا تدانيه إطلاقا . »(١١) وسخر الفليسوف من روسو والقساوسة الجنيفيين الذى أدانوا المسرح باعتباره منبر الشيطان . ولم يكتف بتدريب مدام دنيس بل درب أيضاً خدمه وضيوفه على لعب الأدوار فى تمثيلياته وغيرها ، وكان هو نفسه يختال على خشبة المسرح فى الأدوار الرئيسية ، وأقنع الممثلون المحترفون بسهولة بأن يمثلوا لأشهر كاتب فى العالم .

ووجد الزوار فى مظهره فتنة تقرب من فتنة حديثه ؛ فقال أمير لين فى وصفه إنه مدثر بروب عليه رسوم أزهار ، على رأسه باروكة هائلة تعلوها قلنسوة من المخمل الأسود ، ويرتدى سترة من القطن الرفيع تصل إلى ركبتيه ، وبنطلونا قصيرا أحمر ، وجوارب رمادية ، وحذاء من القماش الأبيض .(١٢) وكانت عيناه « لامعتين تمتلئان نارا » كما يقول فاجنير ،

وقال هذا السكرتير المخلص إن مولاه « كثيرا ما كان يغسل عينيه بالماء النقى البارد » ، و « لا يستعمل النظارات إطلاقاً »[١٣] وفى أخريات حياته ، حين مل حلاقة لحيته ، كان ينزع شعرها بملقاط . ويواصل فاجنير حديثه فيقول « كان شديد الولع بالنظافة والنظام ، وكان هو ذاته نظيفا إلى حد الوسوسة . »[١٤] وكثيرا ما كان يستعمل مساحيق التجميل ، والعطور ، والمراهم ، وكانت حاسة شمه المرهفة تتأذى من الروائح الكريهة .[١٥] وكان « نحيلا إلى حد يصدق » لا يحمل من لحم إلا ما يكسو عظامه بالجهد . وكتب الدكتور بيرنى بعد أن زاره عام ١٧٧٠ « ليس من اليسير تصور إمكان بقاء الحياة فى جسد يكاد يكون جلدا وعظاما .... وقد ظننى مشتاق لتكوين فكرة عن ... إنسان يمشى بعد موته . »[١٦] وقد قال يصف نفسه إنه « يثير السخرية لأنه لم يمت »[١٧].

كان عليلا نصف عمره . وكان يشكو من بشرة شديدة الحساسية ؛ وكثيرا ما شكا من حكات متنوعة [١٨] ، ربما من أثر العصبية أو الإفراط فى النظافة . وكان أحيانا يعانى من تقطر البول — وهو التبول البطىء المؤلم ؛ فى هذه الناحية كان هو وروسو صنوين وإن اشتد تباينهما فيما عداها . وكان يشرب القهوة باسراف — خمسين مرة فى اليوم فى رواية فردريك الأكبر ؛[١٩] وثلاث مرات فى رواية فاجنير[٢٠] . وهو يسخر من الأطباء ، ويلاحظ أن لويس الخامس عشر عمر بعد أن مات أربعون من أطبائه ، ويقول « من سمع بطبيب عمر للمائة ؟ »[٢١]

ولكنه هو نفسه كان يستعمل الكثير من العقاقير . وقد وافق مرشح موليير لنيل درجة الطب على أن خير دواء فى أى داء خطير هو « إعطاء عقار مسهل »[٢٣] . وكان يطهر أمعاءه ثلاث مرات فى الأسبوع بمحلول القرفة الصيفية ، أو بحقنة صابون . ومن رأيه أن خير الأدوية هو الدواء الواقى ، وخير واق هو تنظيف الأعضاء الداخلية والغطاء الخارجى .[٢٤] وكان يمارس عمله ، رغم شيخوخته ، وأوصابه ، وزواره ، بنشاط لا يؤتاه إلا رجل تخفف من عبء اللحم الفائض . وقد قدر فاجنير أن مولاه لم يكن ينام « أكثر من خمس ساعات أو ست »[٢٥] فى اليوم . وكان يواصل العمل إلى

ساعة متأخرة من الليل ، وأحيانا يوقظ الأب دم من فراشه لينعيئه على تصيد كلمة يونانية .[٢٦]

وكان يؤمن أن العمل دواء ناجح للفلسفة والانتحار . وأنجع منه العمل فى الخلاء ، فهو يزرع حديقته بشخصه ، وأحيانا يحرث أو يبذر البذر بيديه.[٢٧] وتبينت مدام دودفان فى رسائله اللذة التى استشعرها فى رؤية الكرنب الذى غرسه ينمو . وكان يرجو أن يذكره الخلف على الأقل لآلاف الاشجار التى غرسها . وقد أصلح الأراضى البور وجفف المستنقعات . وأنشأ إسطبلا لتربية الخيل وجلب إليه عشر مهرات ، ورحب بعرض المركيز دفواييه أن يعطيه فحلا . وكتب يقول « إن حريمى جاهز لا ينقصه غير السلطان ... لقد كتب الكثير جدا فى السنوات الأخيرة عن السكان حتى إننى أود على الأقل أن أملأ أرض جكس بالخيل ، ما دامت قاصرا عن شرف إكثار نوعى الإنسانى »[٢٨] . وكتب إلى الفسيولوجى هاللر يقول « أن خير ما يسعدنا عمله على هذه الأرض هو أن نزرعها ، وكل ما عدا ذلك من تجارب فى الفيزياء بالقياس إليه عبث أطفال . أنعم وأكرم بزراع الأرض ، وتبا للإنسان الشقى الذى يكدرها — سواء حمل على رأسه تاجا ، أو خوذة ، أو قلنسوة كاهن ! »[٢٩] .

وحين أعوزته الأرض التى تكفى لتشغيل جميع السكان من حوله ، نظم فى فرنيه وتورنيه حوانيت لصنع الساعات ونسج الجوارب — التى ربت لها أشجار توته دودة القز . وكان يشغل كل طالب شغل ، حتى أصبح عدد من يعملون له ثمانمائة شخص . وشيد مائة بيت لعماله ، وأقرضهم المال بفائدة قدرها ٤٪ ، وساعدهم على إيجاد أسواق لسلعهم . وما لبث أصحاب التيجان أن أقبلوا على شراء ساعات فرنيه ، ولبست كرائم السيدات اللائى أغرتهن خطاباته جوارب زعم أنه نسج بعضها بيده . واشترت كاترين الثانية من ساعات فرنيه ما بلغت قيمته ٣٩,٠٠٠ جنيه ، وعرضت أن تساعده على إيجاد أسواق لها فى آسيا . وما مضت ثلاث سنوات حتى كانت الساعات الصغيرة والكبيرة والحلى والمجوهرات المصنوعة فى فرنيه تصدر فى شحنات منتظمة على السفن إلى هولندة ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، ومراكش ، والجزائر ،

وتركيا ، وروسيا ، والصين ، وأمريكا . وبفضل الصناعات الجديدة نمت فرنيه من قرية يسكنها أربعون فلاحا إلى مجتمع قوامه ألف ومائتا نفس خلال مقام فولتير بها . كتب إلى رشايو يقول « أعطنى فرصة مواتية وأنا كفيل ببناء مدينة . »[٣٠] وعاش الكاثوليك والبروتستنت فى سلام على أرض هذا الزنديق .

أما علاقاته بـ « مواليه » فكانت علاقات « الإقطاعى الطيب » . وكان يعاملهم كلهم بأمانة ومجاملة . يقول الأمير دلين : « كان يكلم فلاحيه وكأنهم سفراء »[٣١] . وأعفاهم من ضرائب الملح والتبغ (١٧٧٥) .[٣٢] وكافح دون طائل ولكن بغير هوادة ليحرر جميع فلاحى إقليم جكس من رق الأرض . وحين هددت المجاعة الإقليم استورد القمح من صقلية وباعه بأقل كثيرا مما كلفه .[٣٣] وبينما كان يواصل حربه على « العار » — على الخرافة ، والظلامية ، والاضطهاد — أنفق الكثير من وقته فى ممارسة الإدارة . واعتذر عن عدم مغادرة فرنيه ليزور أصدقائه بقوله « على أن أرشد وأعول ثمانمائة شخص ... ولا أستطيع الغياب دون أن أعرض كل شىء للانتكاس إلى حالة الفوضى » .[٣٤] وقد أدهش نجاحه إداريا كل من شهد نتائجه . قال ناقد من أقسى نقاده « أنه أبدى حكما واضحا على الأمور وإدراكا حسنا جدا . »[٣٥] وتعلم القوم الذين حكمهم أن يحبوه ، ومرة ألقوا أوراق الغار على مركبته أثناء مروره .[٣٦] وكان أشدهم تعلقا به الشباب والصغار لأنه فتح لهم قصره كل أحد للرقص والترفيه . »[٣٧] وكان يشجعهم على المضى فى لهوهم ويغتبط لابتهاجهم . كتبت مدام دجالالتان تقول « كان فى غاية السعادة ولم يحس بأنه بلغ الثانية والثمانين »[٣٨] . لقد أحس بهذا ، ولكنه كان راضيا . وكتب يقول « إنى أصبح شيخا »[٣٩] .

٢ — صولجان القلم

وواصل الكتابة خلال ذلك ، فدفع بمالا يصدق كما ، وكيفا . وتنوعا . من التواريخ ، والأبحاث ، والدراسات ، والقصص ، والقصائد ، والمقالات . والنبذ ، والخطابات ، والمراجعات النقدية — دفع بهذا كله إلى جمهور دولى يتلهف على كل كلمة تصدر عنه . فى سنة واحدة — سنة ١٧٦٨ — كتب

« الرجل صاحب الأربعين أيكو » و « أميرة بابل » (وهى من خيرة قصصه » ، و « رسالة إلى بوالو » ، و « إعلان لإيمان موحد بالله » و « بيروية (لا أدرية) التاريخ » ونصين لأوبرا هزلية ، وتمثيلية . وكان ينظم كل يوم تقريبا « شعرا قصير الأجل » هو ضرب من الإبجرام المسجوع ، قصير ، خفيف ، رشيق ؛ وهو فى هذا المضمار لا يشق له غبار فى الأدب بأسره ، حتى فى التفوق المركب لـ « المختارات اليونانية » .

وقد عالجنا كتاباته فى الدين والفلسفة فى غير هذا الموضع . فلنلق نظرة عاجلة على التمثيليات التى كتبها فى فرنيه . تانكريد ، ونانين ، والاسكتلندية ، وسقراط ، وشاول ، وإيرين ، وهى أقل ذريته خلودا وإن كانت حديث باريس فى حياته . وقد حظيت تانكريد التى مثلت على التياتر — فرانسيه فى ٣ سبتمبر ١٧٥٩ باستحسان الجميع حتى فريرون ، خصم فولتير اللدود . وقد بلغت الآنسة كليرون فى دور دبورة ، ولو كان فى دور تانكريد فى هذه المسرحية قمة فنها . وكانت خشبة المسرح قد أجلى عنها المتفرجون وجملت بديكور فسيح رائع ، وكان الموضوع الفروسى الوسيط تحولا محببا عن المواضيع الكلاسيكية ، بل يمكن القول إن تلميذ بوالو كتب هنا تمثيلية رومانسية ، وأظهرت « نانين » أن فولتير تأثر برتشردسن ، شأنه شأن ديدرو ؛ وقد امتدحها روسو ذاته . أما « سقراط » فاحتوت — حكمة غالية « إنه انتصار للعقل أن يعيش فى سلام مع أولئك الذين لا عقل لهم . »[٤٠]

وقد درس فولتير كورنيي وراسين دراسة مستفيضة ، وهو الذى أشاد به جيله ضريبا لهما . تردد طويلا فى أى الاثنين يفضل ؛ وانتهى به التردد إلى إيثار راسن . وقد رفع الاثنين بجرأة فوق مقام سوفوكليس ويوربيديس ، ورفع موليير فى أفضل مسرحياته ، فوق تيرينس ببرودتة رغم نقائه ، وفوق المهرج أرستوفانيس .[٤١] وقد تأثر حين نمى إليه أن مارى كورينى ، حفيدة أخى المسرحى ، تعيش فى ضنك قرب إفريه ، فعرض أن يتبناها ويتكفل بتعليمها ، وحين علم أنها فتاة متدينة أكد لها أنه سيتيح لها كل الفرص لممارسة عبادتها . فحضرت إليه فى ديسمبر ١٧٦٠ ، فتبناها ، وعلمها أن تكتب

الفرنسية الجيدة ، وأصلح من نطقها ، وصاحبها إلى القداس . ورغبة فى جمع مهر لها اقترح على الأكاديمية الفرنسية أن تنوط به نشر أعمال كورنيي والتعليق عليها ، فوافقت . وعكف لتوه على قراءة تمثيليات سلفه من جديد وتزويدها بالمقدمات والهوامش ، ثم أعلن عن المشروع ، وناشد الراغبين أن يكتتبوا له لأنه كان خبيرا بشئون المال والأعمال ، واكتتب كل من لويس الخامس عشر ، والقيصرة اليزافيتا ، وفردريك ملك بروسيا ، بمائتى نسخة ، وكل من مدام ديومبادور وشوازيل بخمسين ، ووصلته اكتتابات أخرى من تشسترفيلد وغيره من وجوه الأجانب . وكانت النتيجة أن تقدم الخطاب الكثيرون لمارى كورينى . وقد تزوجت مرتين ، وأصبحت فى ١٧٦٨ أم شارلوت كورداى .

وقد كان فولتير أعظم مؤرخى جيله كما كان أعظم شعرائه ومسرحييه . فى ١٧٥٧ طلبت إليه الإمبراطورة اليزافيتا أن يكتب ترجمة لأبيها بطرس الأكبر . ودعت فولتير إلى سانت بطرسبورج ووعدته بأن تغدق عليه أسباب التكريم . فأجاب بأن شيخوخته تحول بينه وبين القيام برحلة كهذه ، ولكنه سيكتب التاريخ إذا وافاه وزيرها الكونت شوفالوف بالوثائق التى تبين سيرة بطرس والتغيرات التى أحدثتها إصلاحات هذا القيصر . وكان قد رأى فى شبابه بطرس فى باريس (١٧١٦) ؛ وكان يعتبره رجلا عظيما ، همجيا رغم عظمته وتحاشيا للخوض الخطر فى أخطائه ، قرر ألا يكتب ترجمة بل تاريخا لروسيا تحت حكمه الجدير بأن يذكر ، وهى مهمة أشق بكثير . وقام بأبحاث هامة فى الموضوع ، وعكف بهمة على هذا العمل من ١٧٥٧ إلى ١٧٦٣ ، ثم نشره فى ١٧٥٩ — ١٧٦٣ بعنوان « تاريخ الروسيا فى عهد بطرس الأكبر . » وكان مأثرة جليلة بالنسبة لزمانه ، وظل خير تناول للموضوع قبل القرن التاسع عشر ، ولكن ميشليه الأمين وجده باعثا على السأم ، وقد رأت القيصرة أجزاء منه ، فأرسلت إلى فولتير « ماسات كبيرة » على الحساب ، ولكنها سرقت فى الطريق ، وماتت القيصرة قبل أن يكتمل الكتاب .

وبينما كانت حرب السنين السبع مستعرة من حوله ، قام فى فترات متقطعة بتجديد كتابه « التاريخ العام » أو « مقال فى الأعراف » مضيفا إليه (١٧٥٥ —

١٧٦٣ (« خلاصة لعصر لويس الخامس عشر » وكانت عملية شائكة ، لأنه لم يزل من الناحية الرسمية مدانا من الحكومة الفرنسية ؛ وعلينا أن نغتفر له مروره الحذر بأخطاء الملك الحاكم ؛ ولكنه رغم ذلك كان قصة ممتازة فيها بساطة ووضوح ، وكاد وهو يروى قصة الأمير تشارلز إدورد ستيوات (بوتى يرنس تشارلى) أن ينافس الشخصية التى رسمها للملك « شارل الثانى عشر » ـ ووفاء لمفهومه عن التاريخ ، الذى يراه أكمل ما يكون إذا سجل تقدم العقل البشرى ، أضاف مقالا ختاميا « فى تقدم العقل فى عصر لويس الخامس عشر » ولاحظ أشياء بدا له أنها علامات تشير إلى النمو :

« إن إلغاء السلطة الزمنية لرهبنة برمتها (اليسوعيين) وتأديب الرهبنات الأخرى التى أصلحتها هذه السلطة ، والفصل بين (اختصاص) القضاة والأساقفة — كل هذا يدل على مبلغ ما بدد من أهواء ، وعلى مدى اتساع المعرفة بشئون الحكم ، وعلى درجة استنارة أذهاننا . وقد ألقيت بذار هذه المعرفة فى القرن الماضى . وهى تنبت اليوم فى كل مكان فى القرن الحاضر ، حتى فى أقصى الأقاليم ... فقد أنار العلم البحث الفنون النافعة ، وبدأت هذه الفنون فعلا فى إبراء جراح الدولة التى ابتلتها بها حربان طاحنتان . « أن معرفة الطبيعة ، ونبذ الخرافات البالية التى قدسها الناس فى الماضى كأنها تاريخ ، والميتافيزيقا الصحيحة المبرأة من سخافات المذاهب — تلك هى ثمرات هذا العصر ، وقد تحسن العقل الإنسانى تحسنا كبيرا .

أما وقد أدى فولتير دينه للتاريخ ، فأنه عاد إلى الفلسفة وإلى حملته على الكنيسة الكاثوليكية. وأصدر فى تعاقب سريع الكتيبات التى فحصناها من قبل ، وكأنها ضرب من المدفعية الخفيفة فى الحرب على « العار » : « الفليسوف الجاهل » ، و « إمتحان هام للورد بولنبروك » و « الساذج » و « قصة جينى » و « ألف باء العقل » ووسط هذه الأعمال الشاقة واصل أغرب تبادل للرسائل قام به فرد واحد .

فحين زاره كازانوفا عام ١٧٦٠ أراه فولتير مجموعة من نحو خمسين ألف خطاب تسلمها حتى ذلك العام ، وسيجتمع له منها بعد ذلك نحو هذا العدد ، ولما

كان مستلم الخطاب هو الذى يدفع أجرة البريد ، فإن فولتير كان ينفق أحيانا مائة جنيه على البريد الذى يتسلمه فى يوم واحد . وكان ألف معجب ، وألف عدو ، ومائة مؤلف شاب ، ومائة هاو للفلسفة ، يبعثون إليه بالهدايا وباقات الزهور ، والشتائم ، واللعنات ، والأسئلة ، والمخطوطات ، ولم يكن من غير المألوف أن يرجوه سائل متلهف أن ينبئه برجوع البريد هل وجد إله ، أو هل للإنسان نفس خالدة . وأخيرا نشر تحذيرا فى « المركيز دفرانس » جاء فيه :

« نظرا إلى أن أشخاصا عديدين شكوا من عدم تسلمهم ما يفيد وصول طرود أرسلوها إلى فرنيه ، أو تورنيه ، أو ليدليس ، لزم التنبيه إلى أنه بسبب ضخامة عدد تلك الطرود ، أصبح من الضرورى رفض تسلم كل ما لا يأتى من أشخاص تشرف المالك بمعرفتهم . »[٤٣]

وفى طبعة تيودور بسترمان الكاملة تملأ رسائل فولتير ثمانية وتسعين مجلداً . وفى رأى برونتيير أنها « أخلد قسم من إنتاجه كله »[٤٤] . والحق أننا لا نجد صفحة مملة فى هذا الحشد برمته ، لأننا فى هذه الرسائل ما زال فى إمكاننا أن نسمع ألمع محدث فى زمانه يتكلم بكل ألفة الصديق . وما من كاتب من قبل ولا من بعد حشد على قلمه المتدفق كل هذا التأدب ، والحيوية ، والسخر ، والرشاقة الكثيرة . إنها ليست وليمة للذكاء والبلاغة فحسب ، بل للصداقة الحارة ، والشعور الرقيق ، والفكر البتار ، ولو قورنت بها رسائل مدام دسفينيه على ما فيها من دواعى البهجة . لبدت ترفرفا خفيفاً عارضاً على سطح توافه عابرة . لقد كان فى زخارف أسلوب رسائله ولا ريب بعض التمسك بالعرف ، ولكن يبدو أنه يتعمده حين يكتب إلى دالامبير قائلا « أعانقك بكل قوتى ، ويؤسفنى أنه حتم أن يكون العناق على هذا البعد السحيق » ، وهو مارد عليه دالامبير بقوله : « وداعا يا صديقى العزيز الشهير ، إنى أعانقك فى حنان ، وأنا أكثر منى فى أى وقت مضى ، ملكك بالروح »[٤٥] . ثم استمع إلى كلمات فولتير لمدام دودفان : « وداعا يا سيدتى .... إن أوثق الحقائق التى التمسها هى أن لك نفسا توافقنى ، وسأكون شديد التعلق بها طوال الأجل القصير الذى افسح لى »[٤٦] .

وكانت رسائله لمعارفه فى باريس موضع تقديرهم ، تتداولها الأيدى تداول نفائس الأخبار ودرر الأسلوب . ذلك أن رسائل فولتير هى التى بلغ فيها أسلوبه أروع تألقه . فهذا الأسلوب لم يبلغ قصارى إبداعه فى تواريخه ، حيث يستحب السرد الناعم المتدفق أكثر من البلاغة أو النكتة ، وفى تمثيلياته شط إلى حد الخطابة الرنانة الطنانة ؛ أما فى رسائله فقد استطاع أن يدع سن قلمه الماسى يسطع بالابجرام أو ينير موضوعا بدقة وإيجاز لا مثيل لهما . وقد جمع بين علم بيل وأناقة فونتينيل ، واستعار مسحة تهكم وسخرية من رسائل بسكال الإقليمية ، وقد ناقض نفسه خلال سنى كتابته السبعين ، ولكنه لم يكن قط غامضا ؛ ونحن لا نكاد نصدق أنه كان فليسوفا ، فهو فى غاية الوضوح ، يقصد مباشرة إلى هدفه الأهم ، إلى النقطة الحيوية فى الفكرة . وهو يتوخى القصد فى النعوت والتشبيهات مخافة أن يعقد الفكرة ، وفى كل جملتين تقريبا ومضة من نور . وقد تتكاثر الومضات أحيانا ، وتتزاحم نفحات الذكاء ؛ فيتعب القارىء بين الحين والحين من هذا التألق ، وتضيع عليه بعض السهام المريشة من ذهن فولتير السريع الحركة . وقد أدرك أن فرط تألقه هذا خطأ ، كوضع الجواهر على العباءة . واعترف فى تواضع بأن « اللغة الفرنسية بلغت وج كمالها فى عصر لويس الرابع عشر . » (٤٧)

وكان بين مراسليه نصف وجوه ذلك العهد — لا كل جماعة الفلاسفة فحسب ، ولا جميع كبار مؤلفى فرنسا وانجلتره فحسب ، بل الكرادلة ، والبابوات ، والملوك ، والملكات ، واعتذر له كرستيان السابع عن عدم تنفيذ كل الاصلاحات الفولتيرية فى وقت واحد فى الدنمرك ؛ وأسف ستانسلاس يونياتوفسكى ملك بولندة على أنه سيق على عجل لاعتلاء العرش وهو فى طريقه إلى فرنيه ؛ وشكره جوستاف الثالث ملك السويد لأنه ألقى بين الحين والحين نظرة عجلى على الشمال البارد ، وتوسل « أن يطيل الله فى أيامك الغالية القيمة للإنسانية » (٤٨) . ومع أن فردريك الأكبر وبخه لأنه قسا على موبرتوى ، وأساء أدبه مع الملوك (٤٩) ، إلا أنه كتب بعد شهر يقول « الصحة والرفاهية لأشد من عاش أو سيعيش من العباقرة على هذه الأرض خبثا وإغراء » ؛ (٥٠) وفى ١٢ مايو ١٧٦٠ أضاف :

« أما أنا فسأذهب إلى هناك (الجحيم) وأخبر قرجل بأن فرنسيا بزه فى فنه . وسأقول مثل هذا لسوفوكليس ويوربيديس ، وسأحدث ثيوسيديديس عن تواريخك ، وكوينيتوس كورتيويس عن كتابك « شارل الثانى عشر » ؛ وربما رجمنى هؤلاء الموتى الفيورون لأن رجلا واحدا جمع فى شخصه شتى فضائلهم . »[٥١]

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٧٤ واصل فردريك مدائحه : « لن يكون هناك بديل لك بعد موتك ، وسيكون نهاية الآداب الجيدة فى فرنسا . »[٥٢] (وهذه غلطة بالطبع لأنه ليس للأدب الجيد نهاية فى فرنسا) . وأخيرا ، فى ٢٤ يوليو ١٧٧٥ ، أحنى فردريك صولجانه أمام قلم فولتير: « وأما أنا فيعزينى أننى عشت فى عصر فولتير ، وحسبى هذا . »[٥٣]

وكانت كاترين الكبرى تكتب إلى فولتير كما يكتب رأس متوج إلى آخر — لا بل كما يكتب التلميذ إلى معلمه . فلقد قرأته بشغف ولذة ستة عشر عاما قبل أن تشق طريقها إلى عرش روسيا ، ثم بدأ تراسلهما فى أكتوبر ١٧٦٣ بجوابها بضمير المتكلم على رسالة منظومة بعث بها إلى عضو فى هيئتها الدبلوماسية .[٥٤] ولقبها فولتير سميراميس الشمال ، وأغمض فى لباقة عن جرائمها ، وأصبح المدافع عنها أمام فرنسا . ورجته أن يعفيها من مدائحه ، ولكنه أفاض فيها . وكانت تقدر انحيازه لها ، لأنها علمت أن بفضله — ثم بفضل جريم وديدرو — نالت « مساندة طيبة من الكتاب » فى فرنسا . وأصبحت الفلسفة الفرنسية أداة للدبلوماسية الروسية . وأوصى فولتير كاترين باستعمال المركبات الحربية المدججة بالمناجل على الطريقة الأشورية فى حربها مع الترك ، واضطرت إلى أن تبين له أن الأتراك غير المتعاونين لن يهاجموا عدوهم بتشكيلات مكثفة تكثيفا يتيح حصدهم بشكل مريح .[٥٥] ونسى كراهيته للحرب وسط تحمسه لإمكان قيام جيوش كاترين بتحرير بلاد اليونان من سلطان العثمانيين ، وناشد « الفرنسيين ، والبريطانيين ، والإيطاليين » أن يناصروا هذه الحرب الصليبية الجديدة ، وحزن حين قصرت سميراميس عن تحقيق هدفه . ثم اضطلع بيرون بقضيته تلك .

وقد عنف الكثيرون من الفرنسيين فولتير على تملقه للملكية ، وشعروا أنه حط من قدره باللف حول العروش والتشدق بمديح أصحابها . ولا ريب فى أن هذا اللف كان أحيانا يدير رأسه . ولكنه هو أيضا كان يلعب لعبة دبلوماسية . فهو لم يدع قط العواطف الجمهورية ، وقد ذهب غير مرة إلى أن قدرا من التقدم يمكن تحقيقه بفضل الملوك « المستنيرين » أكثر مما يتحقق بسيطرة الجماهير المتقلبة ، الجاهلة ، التى تتسلط عليها الخرافة . ولم يخض الحرب ضد الدولة بل ضد الكنيسة الكاثوليكية ، وكان تأييد الحكام فى تلك المعركة عونا قيما . وقد رأينا قيمة ذلك التأييد فى حملاته الظافرة دفاعا عن أسرتى كالاس وسيرفنس . وكان أهم فى نظره أن يكون فردريك وكاترين فى صفه وهو يناضل فى سبيل التسامح الدينى . كذلك لم ييأس من كسب لويس الخامس عشر ، فقد كسب من قبل مدام دبومبادور وشوازيل ؛ ثم خطب ود مدام دى بارى . ولم يكن يتورع عن شىء فى استراتيجيته ، والواقع أنه قبل أن ينتهى العهد استطاع الظفر بتأييد نصف حكومة فرنسا ، وتكللت معركة التسامح الدينى .

٣ — فولتير السياسى

ما الذى أمل أن يحققه فى ميدان السياسة والاقتصاد ؟ لقد ثبت بصره على هدفين ، هدف أعلى وآخر أدنى : الأعلى تحرير الناس من الخرافات اللاهوتية وسلطان الكهنة — وهى مهمة عسيرة ولا ريب ، وفيما عدا ذلك طلب بعض الاصلاحات ، ولكنه لم يطمع فى المجتمع المثالى . وكان يبتسم سخرية من « أولئك المشرعين الذين يحكمون الكون .... ومن أبراجهم يصدرون الأوامر للملوك »[٥٦] . وكان معارضا للثورة شأن جماعة الفلاسفة كلهم تقريبا ، ولعله لو عمر حتى يشهدها لصدمته — وربما أعدمته بالجلوتين* . أضف إلى هذا أنه كان غنيا غنى فاحشا ، وما من شك فى أن ثراءه لون آراءه .

(*) انظر وصف روبسبيير الموسوعيين : « أما فيما يتصل بالسياسة ، فإن هذه الجماعة توقفت عند حقوق الشعب . . . . . وقد عارض زعماؤها الاستبداد أحيانا ، وكان يغذيهم الطغاة ، كانوا أحياناً يكتبون المقالات عن الملوك ، وأحياناً الإهداءات تكريما لهم ، وكانوا يدبجون الخطب للحاشية ، والقصائد الغنائية للمحظيات (٥٧) .

فى ١٧٥٨ نوى أن يستثمر ٥٠٠,٠٠٠ فرنك (٦٢٥,٠٠٠ دولار ؟) فى اللورين .[٥٨] وقد كتب إلى فردريك فى ١٧ مارس ١٧٥٩ يقول « أننى أتلقى ستين ألف جنيه (٧٥,٠٠٠ دولار ؟) من دخلى (السنوى) من فرنسا ... وأننى أعترف بأننى غنى جدا . » وكان قد جمع ثروته بفضل « نصائح » من أصدقائه الماليين أمثال الأخوين بارى ، وبفضل فوزه بجوائز اليانصيب فى فرنسا واللورين ، وبفضل نصيبه فى تركة أبيه ، وبفضل شراء سندات الحكومة ، والمساهمة فى مشروعات تجارية ، وإقراض المال للأفراد . وكان يقنع بعائد قدره ٦٪ ، وهو عائد معتدل إذا أخذنا فى الاعتبار المخاطر والخسائر . وقد ضاع عليه ألف إيكو (٣,٧٥٠ دولارا ؟) فى تفليسة شركة جليار فى قادس (١٧٦٧)[٥٩] . وفى ١٧٦٨ علق جيبون فى معرض الإشارة إلى الثمانين ألف فرنك (١٠٠,٠٠٠ دولار ؟) التى أقرضها فولتير للدوق دريشليو : « لقد أفلس الدوق ، والضمان عديم القيمة ، واختفت النقود . »[٦٠] وعند موت فولتير كان قد تسدد ربع السلفة . وكان دخل فولتير من معاشاته أربعة آلاف فرنك فى العام . وفى عام ١٧٧٧ بلغت جملة دخله ٢٠٦,٠٠٠ فرنك (٢٥٧,٥٠٠ دولار ؟)[٦١] وقد جمل هذه الثروة بما يتناسب معها من سخاء ، ولكنه أحس أنه مطالب بالدفاع عنها دفاعا ليس بالضرورة مما لا يليق بفليسوف

« لقد رأيت الكثير جداً من الأدباء فقراء محتقرين ، بحيث قررت ألا أزيد عددهم . ولا مناص للمرء فى فرنسا من أن يكون إما سندانا أو مطرقة ؛ وقد ولدت سندانا . والميراث الهزيل يتناقص كل يوم ، لأن كل شىء فى المدى الطويل يزداد ثمنه ، وكثيرا ما تفرض الحكومة الضرائب على الدخل والنقود كليهما .... فعليك أن تكون مقصتدا إبان شبابك ، وستجد نفسك فى شيخوختك تملك رأس مال يدهشك ، وهذا هو الوقت الذى تشتد فيه حاجتنا للثروة . »[٦٢]

وكان قد اعترف فى فترة باكرة (عام ١٧٣٦) فى قصيدته « رجل الدنيا » « إننى أحب الترف ، بل الحياة الناعمة ، وجميع اللذات ، وجميع الفنون . » وذهب إلى أن طلب الأغنياء لأسباب الترف يداول مالهم بين الصناع المهرة

والفنانين ، وظن أنه لولا الثروة لما كان هناك فن عظيم .[٦٣] وحين نشر « ميثاق » ميزلييه الملحد ــ الشيوعى ، حذف القسم المعارض للملكية . وقد آمن أنه ما من نظام اقتصادى يستطيع النجاح بغير حافز التملك . « إن روح التملك تضاعف من قوة الإنسان »[٦٤] وكان يأمل أن يرى كل إنسان يملك ملكا ، وبينما كان روسو يبارك القنية فى بولندة كتب فولتير يقول « إن بولندة يمكن أن يزداد سكانها وثروتها ثلاث مرات لو لم يكن فلاحوها أقنانا . »[٦٥] على أنه لم يحبذ أن يصبح الفلاحون أغنياء ، فمن أذن يرفر للدولة جندها الأقوياء ؟[٦٦] .

ولم يشاطر روسو تحمسه للمساواة ؛ فهو يعلم أن الناس كلهم يخلقون غير أحرار ولا متساوين . ورفض فكرة هلفتسيوس القائلة بأنه لو أتيح للناس كلهم التعلم والفرص المتكافئة ، لأصبح الجميع بعد قليل متساويين فى التعليم والقدرات . « يا لها من حماقه أن نتصور أن فى استطاعة كل إنسان أن يصبح نيوتنا ! »[٦٧] فسوف يكون هناك دائما الأقوياء والضعفاء ، والأذكياء والبسطاء ، وإذن الأغنياء والفقراء .

« يستحيل فى دنيانا الكئيبة منع الناس الذين يعيشون فى مجتمع من أن ينقسموا إلى طائفتين ــ الأغنياء الآمرين ، والفقراء الذين يأتمرون .... ولكل إنسان الحق فى أن يكون له رأيه الخاص فى مساواته مع غيره ، ولكن لا يستتبع هذا أن طباخ الكردينال ينبغى أن يأخذ على عاتقه أن يأمر سيده بتجهيز طعامه . على أن للطباخ أن يقول « أننى إنسان كسيدى سواء بسواء ، فقد ولدت مثله بالدموع ، وسأموت مثله فى عذاب ... فكلانا يؤدى الوظائف الحيوانية نفسها . وإذا استولى العثمانيون على روما فأصبحت كردينالا وأصبح سيدى طباخا ، فأننى سأدخله فى خدمتى « وهذه اللغة معقولة ومنصفة جدا ، ولكن ، إلى أن يستولى السلطان العثمانى على روما لابد للطباخ من أن يؤدى واجبه وإلا انهار المجتمع الإنسانى كله . »[٦٨]

ولما كان ابن موثق ، ولم يصبح سيدا إقطاعيا إلا مؤخرا ، فقد كان له

فى الارستقراطية آراء مختلطة ، وواضح أنه فضل نوعها الإنجليزى[٦٩] . وقد قبل النظام الملكى باعتباره الشكل الطبيعى للحكومة « لم يحكم الملوك الأرض كلها تقريبا ؟ ... الجواب الأمين هو : لأن الناس نادرا ما يكونون جديرين بحكم أنفسهم . »[٧٠] وقد سخر من حق الملوك الالهى وأرجعهم هم والدولة إلى الغزو « إن القبيلة تختار زعيما ليقود حملات السلب والنهب التى تشنها ؛ وهى تعود نفسها الطاعة ، وهو يعود نفسه إصدار الأوامر لها ، وفى اعتقادى أن هذا أصل الملكية . »[٧١] فهل هذا طبيعى ؟ أنظر إلى حوش المزرعة :

« إن حوش المزرعة يرينا أكمل تمثيل للملكية . فما من ملك يضارع الديك . ذلك أنه إن مشى شامخا ضاريا وسط قطيعه فما ذلك لغروره ، لأنه إذا زحف العدو فهو لا يكتفى باصدار الأمر لرعيته أن تخرج وتقتل فداءه .... إنما هو يذهب بشخصه ، وينظم جنده من خلفه ، ويقاتل إلى آخر نسمة . فاذا انتصر فهو الذى يترنم بمسبحة الشكر .... وإذا صح أن النحل تحكمها ملكة تخطب ودها جميع رعاياها ، فتلك حكومة أعظم كمالا حتى من حكومة الديك . »[٧٢]

واستطاع لعيشه فى برلين ثم فى جنيف أن يدرس الملكية و « اللاملكية » فى ممارستهما الحية . وكان كغيره من جماعة الفلاسفة متحيزا لأن ملوكا عدة (فردريك الثانى ، وبطرس الثالث ، وكاترين الثانية) وبعض الوزراء (شوازيل ، وأراندا ، وتانوتشى ، وبومبال) استمعوا إلى نداءات الإصلاح ، أو منحوا المعاشات للفلاسفة . وقد بدا فى عصر بلغ فيه الفلاح الروسى منتهى البدائية ، وغلبت الأمية على جماهير الشعب فى كل بلد ، وأعجزها الإرهاب عن التفكير ، إن من السخف اقتراح حكم الشعوب ، والواقع أن « الديمقراطيات فى سويسرة وهولندة كانت أولجاركيات . والجماهير هى التى أحبت أساطر الدين ومراسمه القديمة ، ووقفت كأنها جيش عرمرم فى طريق الحرية والتطور الفكريين . وليس هناك سوى قوة واحدة لها من القدرة ما يمكنها من مقاومة الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، كما قاومت بنجاح الكنائس البروتستنتية فى انجلتره وهولندة وألمانيا وتلك هى الدولة . وبفضل الحكومات الملكية القائمة فى فرنسا وألمانيا وروسيا — بفضل هذه فقط يستطيع الفلاسفة أن يطمعوا فى

الفوز فى كفاحهم للخرافة ، والتعصب ، والاضطهاد ، واللاهوت الطفلى . فهم لا يستطيعون توقع التأييد من « البرلمانات » لأنها تنافس الكنيسة وتبز الملك فى الظلامية ، والرقابة ، وعدم التسامح . ولكن انظر ما فعله هنرى الملاح للبرتغال ، وما فعله هنرى الرابع لفرنسا ، أو بطرس الأكبر لروسيا أو فردريك الأكبر لبروسيا . « ما من عمل جليل تقريبا عمل فى العالم إلا بفضل عبقرية وحزم رجل فرد كافح أهواء الجماهير »[٧٣] . ومن ثم كان جماعة الفلاسفة يتمنون تربع الملوك المستنيرين على العروش . كتب فولتير فى «ميروب» يقول « إن الفضيلة المتربعة على العرش هى أروع أعمال السماء »[٧٤] (*) وسياسة فولتير ينبعث بعضها من ظنه بأن من الناس عدداً كبيراً لا قدرة لهم على هضم التعليم حتى إن قدم لهم . وقد أشار إلى « الشطر المفكر من النوع الإنسانى — أى الجزء على مائة ألف منهم »[٧٦] ، وكان يخشى من عدم النضج العقلى وسرعة الانفعال العاطفى للناس عموما . « حين تشارك الجماهير فى التفكير يضيع كل شىء . »[٧٧] وهكذا ظل حتى سنى شيخوخته لا يتعاطف تعاطفا يذكر مع الديموقراطية . فلما سأله كازانوفا « أتود أن ترى الشعب سيد نفسه ؟ » أجابه « معاذ الله ! »[٧٨] وكتب إلى فردريك « حين رجوتك أن تكون الباعث لفنون اليونان الجميلة ، لم يبلغ رجائى الحد الذى أطلب إليك فيه إعادة الديمقراطية الأثينية . فأنا لا أحب حكم الرعاع . »[٧٩] وقد اتفق وروسو على أن « الديمقراطية لا تناسب غير البلاد الصغيرة » ، ولكنه أضاف قيودا أخرى » وغير تلك التى تنعم بموقع ملائم ... والتى يكفل لها موقعها الحرية ، والتى فى مصلحة جيرانها المحافظة عليها . »(وكان يعجب بالجمهوريتين الهولندية — والسويسرية ، ولكن خامرت إعجابه بعض الشكوك :

« إن تذكرتم أن الهولنديين أكلوا على السفود قلب الأخوين دى ويت ،

(*) علق ميشيلة بفقرة ظريفة على هذا الدفاع عن الملكية فقال « إن من أحلام جماعة الفلاسفة والاقتصاديين — رجال كفولتير وطورجو — أن يحدثوا الثورة — أن يحققوا سعادة النوع الإنسانى — على يد الملوك . وليس أغرب من رؤية هذا المعبود يتنازعه الفريقان ، تجذبه الفلاسفة بمنة ، والقساوسة بسرة . فمن سيظفر به ؟ النساء » (٧٥) .

وإن تذكرتم ... أن الجمهورى يوحنا كلفنى .... بعد أن كتب أننا ينبغى ألا نضطهد إنسانا ولو أنكر الثالوث ، أمر بحرق أسبانى خالفه فى الرأى حول الثالوث فأحرقه حيا على حطب أخضر (بطىء الاحتراق) ، خلصتم حقاً إلى أنه ليس فى الجمهوريات فضيلة أعظم مما فى الملكيات . »[٨١]

على أنه بعد كل هذه التصريحات المعارضة للديمقراطية ، نجده يؤيد الطبقة الوسطى الجنيفية تأييدا نشيطا ضد الاشراف (١٧٦٣) ووطنيى جنيف المحرومين من الحقوق المدنية ضد الارستقراطية والبورجوازية (١٧٦٦) ، ولكن لنرجىء هذه القصة إلى موضعها المناسب .

والواقع أن فولتير أخذ يتحول إلى مزيد من الراديكالية فيما يبدو كلما تقدم به العمر . فى ١٧٦٨ أصدر قصته « الرجل ذو الأربعين إيكو » فطبع الكتاب عشر طبعات فى سنته الأولى ، ولكن برلمان باريس أحرقه وزج بالطابع فى سفن تشغيل العبيد ، ولم يكن مرجع هذه الصراحة تلك السخرية التى سخت بها القصة على جماعة الفزيوقراطيين ، بل تصويرها الحى للفلاحين الذين أفقرتهم الضرائب ، والرهبان الذين يحيون حياة التبطل والترف على أملاك يفلحها عبيد الأرض . وفى كتيب آخر نشره عام ١٧٦٨ وسماه الألف باء (وقد حرص فولتير أشد الحرص على إنكاره) أجرى هذه العبارات على لسان « مسيو ب » .

فى وسعى أن أتكيف بسهولة مع الحكومة الديمقراطية .... فكل الملاك على نفس الأرض لهم نفس الحق فى حفظ النظام على تلك الأرض . إنى أحب أن أرى رجالا أحرارا يضعون القوانين التى يعيشون فى ظلها .... ويطيب لى أن يرفع بنائى ، ونجارى ، وحدادى ، أولئك الذين أعانونى على بناء مسكنى ، وجارى المزارع ، وصديقى الصانع — أن يرفعوا أنفسهم فوق حرفهم ، ويعرفوا الصالح العام خيراً مما يعرفه الموظف التركى الشديد الوقاحة . فليس فى الديموقراطية ما يدعو عاملا أو صانعا إلى الخوف من الإزعاج أو الإحتقار ... فأن يكون المرء حرا ، بين أنداد لا أكثر ، هو الحياة الطبيعية الصادقة للإنسان ،

وما عدا ذلك من أساليب الحياة فهو خدع حقيرة ، وهزليات رديئة يلعب فيها فرد دور السيد ، وآخر دور العبد ، فرد دور الطفيلى ، وآخر دور القواد.»(٨٢)

وفى عام ١٧٦٩ أو بعده بقليل (وكان فى الخامسة والسبعين) فى طبعة جديدة للقاموس الفلسفى ، ساق فولتير وصفا مرا لألوان الطغيان والفساد الحكومية فى فرنسا (٨٣) ، وامتدح انجلترة بالقياس إليها :

«لقد بلغ الدستور الإنجليزى فى الواقع نقطة التفوق التى فيها يرد جميع الناس إلى الحقوق الطبيعية التى حرموا منها فى جميع النظم الملكية تقريبا ، وهى : الحرية الكاملة للأشخاص والأملاك ؛ حرية النشر ؛ حرية المحاكمة فى جميع الجرائم على يد هيئة محلفين من أعضاء مستقلين ؛ حق المحاكمة طبقاً لنص القانون فقط ؛ وحق كل إنسان فى أن يجهر دون مضايقة بأى دين يختاره ويرفض المناصب التى لا يجوز تقليدها إلا لأتباع الكنيسة الرسمية . هذه ..... إمتيازات لا تقدر بقيمة ... أن تكون آمنا مطمئنا وأنت ماض إلى فراشك إلى أنك ستستيقظ وأنت تملك نفس الثروة التى كانت لك حين ذهبت لتنام ، وأنك لن تنتزع من أحضان زوجتك وأطفالك فى جوف الليل ليزج بك فى سجن مظلم أو لتدفن فى منفى فى الصحراء ... وأن يكون لك القدرة على نشر جميع أفكارك ... هذه الإمتيازات يتمتع بها كل من تطأ قدمه أرض انجلترة ... ولا مفر من أن يعتقد أن الدول التى لا تقوم على هذه المبادىء ستجتاحها الثورات (٨٤)

وتنبأ بالثورة فى فرنسا كما تنبأ بها الكثيرون . ففى ٢ أبريل ١٧٦٤ كتب إلى المركيز دشرفلان :

«إنى لأرى فى كل مكان بذور ثورة لا مناص منها ، ثورة لن تتاح لى لذة مشاهدتها . فالفرنسيون يصلون متأخرين فى كل شىء ، ولكنهم يصلون فى النهاية ما فى ذلك شك . وقد اتسع انتشار التنوير اتساعا سيعينه على التفجر فى أول فرصة ، وعندها ستحدث فرقعة عنيفة ... إن الشباب محظوظون ، لأنهم سيرون أشياء عظيمة .»

ومع ذلك حين تذكر أنه يعيش فى فرنسا بفضل تسامح ملك أساء إليه بإقامته فى بوتسدام ، وحين رأى بومبادور وشوازيل ومالزيرب وطورجو يوجهون الحكومة الفرنسية صوب التسامح الدينى والإصلاح السياسى — وربما لأنه تاق إلى الإذن له بالعودة إلى باريس — اتخذ على العموم نغمة أكثر وطنية ، واستنكر الثورة العنيفة :

« إذا اشتد شعور الفقراء بفقرهم أعقبت ذلك حروب كحروب حزب الشعب ضد مجلس الشيوخ فى روما ، وحروب الفلاحين فى ألمانيا ، وانجلترة ، وفرنسا . وقد انتهت هذه الحروب كلها ، إن عاجلا أو آجلا ، باخضاع الشعب ، لأن الكبار يملكون المال ، والمال فى الدولة هو صاحب الإمر والنهى فى كل شىء . »(٨٥)

إذن ، فبدلا من إنقلاب من أسفل ، حيث القدرة على التدمير لا تتبعها القدرة على التعمير ، وحيث تعود الكثرة الساذجة بعد قليل للخضوع مرة أخرى لقلة ماكرة ، آثر فولتير أن يعمل على قيام ثورة غير عنيفة عن طريق إنتقال التنوير من المفكرين إلى الحكام ، والوزراء ، والقضاة ، وإلى التجار ورجال الصناعة ، وإلى الصناع والفلاحين . « أن العقل يجب إقراره أولا فى أذهان القادة ، ثم ينزل شيئا فشيئا وفى النهاية يحكم أفراد الشعب ، الذين لا يعون وجوده ، ولكنهم حين يرون اعتدال رؤسائهم يتعلمون أن يقلدوهم . »(٨٦) ورأى أن التحرير الحقيقى الوحيد ، فى المدى الطويل ، هو التعليم ، وأن الحرية الحقيقية الوحيدة هى الذكاء. « كلما استنار الناس تحرروا . »(٨٧) وليس هناك ثورات حقيقية غير تلك التى تغير العقل والقلب ، ولا ثوار حقيقيون غير الحكيم والقديس .

٤ — المصـــلح

وبدلا من أن يدعو فولتير لثورة سياسية راديكالية ، جاهد فى سبيل إصلاح معتدل تدريجى فى إطار هيكل المجتمع الفرنسى القائم ، وفى نطاق هذه الدائرة المنكرة للذات حقق أكثر مما حققه أى رجل آخر فى جيله .

وكان أهم نداء له هو طلب تنقيح القانون الفرنسى تنقيحا شاملا ، ولم يكن قد روجع منذ ١٦٧٠ . وفى ١٧٦٥ قرأ بالإيطالية كتاب الجيل المسمى « رسالة فى الجنايات والعقوبات » — من تأليف الفقيه الميلانى بيكاريا ، الذى كان بدوره قد استلهم جماعة الفلاسفة . وفى ١٧٦٦ أصدر فولتير كتابه « تعليق على كتاب الجنايات والعقوبات » وفيه اعترف صراحة بفضل السبق لبيكاريا ، ثم واصل مهاجمة مظالم القانون الفرنسى ووفظاعاته إلى عام ١٧٧٧ حين نشر وهو فى الثانية والثمانين كتابه « ثمن العدالة والإنسانية . »

وقد طالب ، بادىء ذى بدء ، بإخضاع القانون الكنسى للقانون المدنى ، وبكبح سلطان الكهنوت فى اشتراط العقوبات التكفيرية المذلة أو فرض التبطل على الناس فى عطلات دينية كثيرة ؛ وطلب تخفيف العقوبات على إنتهاك المقدسات ، وإلغاء القانون الذى يهين جسد المنتحر ويصادر ثروته . وأصر على التفرقة بين الخطيئة والجريمة ، والقضاء على الفكرة التى تقول إن عقاب الجريمة ينبغى أن يدعى أنه يثأر لإله مهان .

« يجب ألا يكون لأى قانون كنسى قوة إلى أن يحصل على موافقة الحكومة الصريحة عليه ... وكل ما يتصل بالزواج لا يفصل فيه غير القضاة ، وينبغى أن يقصر القساوسة على وظيفته مباركة الزواج الجليلة ... وإقراض المال بالفائدة من إختصاصات القانون المدنى وحده ... ويجب أن يكون جميع الكهنة ، فى جميع الحالات أياً كانت ، خاضعين لرقابة الحكومة المطلقة لأنهم رعايا للدولة ... ويجب ألا يكون لأى قسيس سلطة حرمان مواطن ولو من أبسط الحقوق بحجة أنه خاطىء ... ويجب أن يسهم القضاة ، والزراع ، والكهنة على السواء فى نفقات الدولة . »[٨٨]

وقد شبه قانون فرنسا بمدينة باريس — فهو حصيلة بناء تدريجى ، ونتاج المصادفات والظروف ، وخليط من المتناقضات ؛ وقال إن المسافر فى فرنسا يغير قوانينه مرارا كما يغير خيول مركبته ،[٨٩] فالواجب توحيد قوانين جميع الأقاليم والتنسيق العام فيما بينها . وينبغى أن يكون كل قانون واضحا ،

دقيقاً ، ومحصنا على قدر الإمكان من التلاعب بحرفيته . ويجب أن يكون جميع المواطنين سواء أمام القانون ، وإلغاء عقوبة الإعدام لأنها عقوبة همجية مبددة . فلا شك أن من الهمجية عقاب التزوير ، أو السرقة ، أو التهريب ، أو الحرق المتعمد بالموت . وإذا كانت السرقة تعاقب بالإعدام ، فلن يكون هناك ما يمنع اللص من القتل ، ومن ثم فإن كثيرا من جرائم قطع الطريق فى إيطاليا مصحوبة بالاغتيال .« إذا علقتم على مشنقة الدولة (كما حدث فى برلين عام ١٧٧٢) الخادمة التى سرقت دستة فوط من سيدتها ... فإنها لن تستطيع إضافة دستة من الأطفال إلى مواطنيكم ... وشتان بين دستة فوط وبين حياة إنسان . »[٩٠] ومصادرة ثروة إنسان محكوم عليه بالإعدام سرقة صريحة تقترفها الدولة ضد الأبرياء . وإذا كان فولتير يجادل أحيانا من وجهة نظر نفعية فقط فما ذلك إلا لأنه عرف أن حججه هذه سترجح أى نداء إنسانى فى نظر معظم المشرعين .

على أنه حين تناول موضوع التعذيب القضائى أفصحت روحه الإنسانية عن نفسها فى قوة وتأكيد . ذلك أن القانون الفرنسى أباح للقضاة أن يستخدموا التعذيب وسيلة لاستلال الاعترافات قبل المحاكمة إذا كانت هناك من المؤشرات المريبة ما يلمع إلى أن المتهم مذنب . وقد حاول فولتير أن يخزى فرنسا بإشارته إلى مرسوم كاترين الثانية الذى ألغى التعذيب فى روسيا التى زعم الفرنسيون أنها قطر همجى . « أن الفرنسيين ، الذين يعتبرون — ولا أدرى لماذا — شعبا عظيم الإنسانية ، يدهشهم أن الانجليز الذين دفعهم تجردهم من الإنسانية إلى انتزاع كندا كلها من أيدينا ، قد أقلعوا عن لذة استخدام التعذيب . »[٩١]

واتهم بعض القضاة بأنهم « فتوات » يتصرفون كأنهم مدعون لا قضاه ، مفترضين بشكل واضح أن المتهم مذنب حتى تثبت براءته . وأحتج على حبس المتهم فى سجون قذرة ، وأحيانا فى أغلال عدة شهور قبل تقديمه للمحاكمة . ولاحظ أن المتهم بجريمة كبرى يمنع من الاتصال بأى إنسان حتى بمحام . وروى مرارا وتكرارا معاملة آل كالاس وسيرفنس مثالا على التعجل فى

إدانة الأبرياء . وقال إن شهادة شخصين فقط ، حتى إذا كانا شاهدى عيان ، ينبغى ألا تعتبر بعد اليوم كافية لإدانة رجل بالقتل ، وساق أمثلة على شهادة الزور ، وألح فى إلغاء عقوبة الإعدام ولو للحيلولة دون إعدام برىء واحد فى كل ألف متهم . وكان فى الإمكان إصدار أحكام الإعدام فى فرنسا بأغلبية اثنين من القضاة ، وقد حكم على كالاس بالموت بأغلبية ثمانية ضد خمسة . وطالب فولتير بأن يشترط لإصدار حكم الإعدام توافر أغلبية ساحقة ، ويفضل أن تكون إجماعا . « يالها من فظاعة سخيفة أن يعبث بحياة مواطن وموته فى لعبة ستة إلى أربعة ، أو خمسة إلى ثلاثة ، أو أربعة إلى اثنين ، أو ثلاثة إلى واحد . »(٩٢)

وكانت الاصلاحات التى اقترحها فولتير على الجملة توفيقا بين ميراثه الثقافى الوسيط وكراهيته للكنيسة ، وخبرته واستثماراته بوصفه رجل أعمال ومالك أرض ، ومشاعره الصادقة شخصا بارا بالإنسانية ، وكانت مطالبه معتدلة ، ولكنها كانت فى كثير من الحالات ذات أثر فعال . شن حملة لتحقيق حرية النشر ، فوسعت هذه الحرية توسيعا هائلا — ولو بفضل إغضاء الحكومة فقط — قبل أن يموت . وطلب إنهاء الاضطهاد الدينى ، فأنهى فى فرنسا من الناحية العملية فى ١٧٨٧ . واقترح الإذن للبروتستنت ببناء الكنائس ونقل الملكية أو وراثتها ، والتمتع بكامل حماية القوانين ؛ فتم هذا قبل إندلاع الثورة . وطلب إباحة الزواج قانونا بين أشخاص من ديانات مختلفة ، فأبيح . وندد ببيع المناصب ، وفرض الضرائب على الضروريات ، والقيود على التجارة الداخلية ، وبقاء القنية والوقف ؛ وأشار على الدولة بأن تسترد من الكنيسة تنفيذ الوصايا وتعليم الصغار ؛ وفى هذه الأمور جميعها كان لصوته تأثير على الأحداث . وقاد الحملة لإجلاء المتفرجين عن خشبة مسرح التياتر — فرانسيه ، فتم هذا فى ١٧٥٩ . وأوصى بفرض الضرائب على جميع الطبقات ، وبنسبة ثرواتهم ، وكان على هذه التوصية أن تنتظر حتى تنشب الثورة . وطلب تنقيح القانون الفرنسى ، فتم هذا فى مجموعة قوانين نابليون (١٨٠٧) ؛ وهكذا يسر الفقهاء والفلاسفة لرجل الحرب والسياسة ، الذى قرر الهيكل التشريعى لفرنسا حتى يومنا هذا ، أن يحقق أعظم مآثره بقاء على الزمن .

٥ — فولتير الصميم

كيف نجمل القول فى شخصية هذا الرجل المذهل جدا من رجال القرن الثامن عشر ؟ لم يعد بنا حاجة للحديث عن عقله — فقد أفصح عن نفسه فى مائة صفحة من هذه المجلدات . ولم يباره أحد فى سرعة الخاطر ووضوح الفكر ، ولا فى حدة النكتة ووفرتها ، وقد عرف النكتة الذكية بعناية بالغة فقال .

« إن ما يسمى النكتة الذكية هو أحيانا مقارنة مجللة ، وأحيانا كناية رقيقة ، أو قد يكون لعبا بالألفاظ — فأنت تستعمل لفظا بمعنى ، علما أن محدثك سيأخذه (لأول وهلة) بمعنى آخر . أو هو طريقة ماكرة للمقارنة بين أفكار لا يقرن الناس بينها عادة ... إنه فن إيجاد صلة بين نقيضين ، أو خلاف بين شبيهين ؛ إنه فن قول نصف ما تعنى وترك الباقى للخيال . ولو أوتيت المزيد منه شخصيا لزدت القول فيه كثيرا . »[٩٣]

ولم يؤت إنسان آخر مزيدا من هذه النكتة الذكية ، ولعل حظه هو منها كان كما قلنا مفرطا . فقد كان زمام حبه للدعابة يفلت منه أحيانا ، وكثيرا ما غلظت دعابته وأشرفت على التهريج أحيانا .

ولم تترك له سرعة إدراكاته ، وربطاته ، ومقارناته ، وقفة تتيح له الاتساق والتماسك ، ولم يسمح له تعاقب أفكاره السريع دائما وهو يتناول موضوعا بالتغلغل فيه إلى أعماقه المتاحة للبشر . ولعله تسرع فى الحكم على الجماهير بأنهم رعاع ؛ وليس فى وسعنا أن نتوقع منه التنبؤ بزمن سيكون فيه التعليم للجميع ضروريا لاقتصاد تقدمى من الناحية التكنولوجية . ولم يطيق صبرا على نظريات بوفون الجيولوجية ، أو فروض ديدرو البيولوجية . وقد اعترف بقصوره ، ولم يخل من لحظات تواضع . قال لصديق مرة « إنك تظننى أعبر عن نفسى بوضوح كاف . ولكننى أشبه بالجداول الصغيرة — فهى صافية شفافة لأنها ليست عميقة . »[٩٤] وكتب إلى داكان فى ١٧٦٦ :

« منذ كنت فى الثانية عشرة اعتدت أن أتكهن بعدد هائل من الأشياء التى لم أوت الموهبة لفهمها . فأنا عليم بأن أعضائى لم تهيأ لتعمق الرياضة . وقد أثبت أننى لا أميل إلى الموسيقى . اعتمد على تقدير فيلسوف عجوز فيه من الحماقة .... ما يحمله على الاعتقاد بأنه مزارع قدير جدا ، ولكن ليس فيه من الحماقة ما يحمله على الاعتقاد بأنه وهب جميع المواهب . »[٩٥]

وليس من الإنصاف أن نطلب من رجل كثرت الموضوعات التى عالجها هذه الكثرة أن يكون قد أستوعب كل المعلومات المتاحة عن كل موضوع قبل أن يجرى عليه قلمه . فلم يكن كله عالما ؛ لقد كان مقاتلا ، أديبا جعل الأدب ضربا من العمل ، وسلاحا للتغيير . ومع ذلك تستطيع أن ترى من مكتبته التى حوت ٢,٢١٠ مجلدا ، وما تركه على الكتب من هوامش ، أنه درس فى شغف وعناية موضوعات فيها تنوع مذهل ، وأنه كان رجلا واسع العلم جدا بالسياسة ، والتاريخ ، والفلسفة ، واللاهوت ، ونقد الكتاب المقدس ، وكانت رقعة حبه للاستطلاع واهتماماته شاسعة ؛ وكذلك كان غنى أفكارة وقدرة ذاكرته على التذكر . ولم يأخذ أى تقليد موروث على أنه قضية مسلمة ، بل فحص كل شىء بنفسه . وكان فيه نزوع إلى التشكك لا يتردد فى أن يعارض بالفطرة السليمة خرافات العلم وأساطير إيمان العوام سواء بسواء . وقد وصفه عالم نزيه بأنه « مفكر جمع من المعلومات الدقيقة عن العالم فى جميع نواحيه أكثر مما جمعه أى إنسان منذ أرسطو . »[٩٦] ولم يوفق عقل واحد فى أى بلد آخر فى أن ينقل إلى دنيا الأدب ودنيا العمل هذا الحشد الهائل من المواد من مثل هذه الميادين المنوعة .

ولابد لنا من أن نصوره أعجب مزيج من عدم الاستقرار العاطفى ، والرؤية والقدرة العقليتين . فقد جعلته أعصابه دائما متوترا قلقا ، فما كان فى استطاعته الجلوس ساكنا إلا إذا استغرقته الكتابة الأدبية . وحين سألت السيدة ذات الردف الواحد « أيهما أسوأ للمرأة — أن يهتك عرضها قرصان من الزنوج مائة مرة ، أو أن يجرح ردفها جرحا بليغا ... أو أن تقطع أربا ، أو أن تجذف فى سفن تشغيل العبيد ، .... أو أن تقعد ولا تعمل شيئاً ؟ » أجابتها كانديد

وهي تنعم الفكر « ذلك سؤال كبير . »[٩٧] لقد كان لفولتير أيام حفلت بالسعادة ، ولكنه قل أن عرف سلام العقل أو الجسد . كان عليه أن يكون مشغولا ، نشيطا ، يبيع ويشترى ، ويزرع ، ويكتب ، ويمثل ، ويتلو ، وكان يخشى الملل أكثر مما يخشى الموت ، وفى لحظة سأم ذم الحياة لأنها « إما ضجر أو قشدة مخفوقة . »[٩٨]

ولعلنا نرسم صورة قبيحة لفولتير أن وصفنا طلعته دون أن نلحظ عينيه ، أو عددنا أخطاءه وحماقاته دون فضائله وظرفه . لقد كان « البورجوازى منتحل النبالة » الذى شعر بأن له من الحق فى لقب الشرف ما لمدينيه المماطلين . ولقد بارى أعظم السادة الإقطاعيين كياسة فى السلوك والحديث ، ولكنه كان قادرا على المساومة فى المبالغ التافهة ، وانهال على المشرف على الآجام بأقذع الشتائم بسبب أربعة عشر قدما مكعبا من الخشب — أصر على قبولها هدية دون ثمن . وأحب المال أساسا لأمنه . وقد اتهمته مدام دنيس بالبخل بعبارات فيها غلو شديد : « إن محبة المال تعذبك ... وأنت فى صميمك أحط الرجال . وسأخفى مااستطعت رذائل قلبك » .[٩٩] ولكنها حين كتبت هذا (١٧٥٤) كانت تعيش عيشة التبذير فى باريس على مال كان عبئا باهظا على جيبه ، وفى باقى السنين التى قضتها معه كانت تحيا حياة الأبهة والفخفخة بفرنيه .

وقبل أن يصبح مليونيرا وبعده كان يسعى لمصادقة الأقوياء إجتماعيا أو سياسيا بتعلق يقرب أحيانا من التذلل . وفى « رسالة إلى الكردينال دموا » وصف معدن الرذائل ذاك بأنه أعظم من الكردينال ريشليو[١٠٠] . وحين كان يسعى لقبوله فى الأكاديمية الفرنسية واحتاج إلى تأييد رجال الدين أكد للأب دلاتو الكبير النفوذ أنه يود أن يعيش ويموت فى كنف الكنيسة الكاثوليكية المقدسة .[١٠١] وأكاذيبه المطبوعة تؤلف كتابا لو جمعت ، والكثير منها لم يطبع ، وبعضها كان غير قابل للنشر ، وقد ذهب إلى أن هذا الإجراء مبرر فى الحرب ، وأحس أن حرب السنين السبع لم تكن غير لهو الملوك إذا قيست بحرب الثلاثين عاما التى خاضها ضد الكنيسة ؛ والحكومة التى تستطيع أن تزج برجل فى السجن لقوله الصدق ليس فى وسعها أن تشكو بحق إذا كذب .

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٦٤ عندما حمى وطيس معركته ، كتب إلى دالامبير يقول « حالما يبدو أدنى خطر تفضل بإبلاغى لكى أنكر كتاباتى فى الصحف العامة بما عهد فى من صراحة وبراءة . » وقد أنكر كل أعماله تقريبا باستثناء ملحمة « الهنريادة » وقصيدته فى معركة فونتنوا . » على المرء أن يظهر الحق للأجيال القادمة بجرأة ، ولمعاصريه بحذر . ومن العسير جدا التوفيق بين الواجبين . » (١٠٢)

وما من شك فى أنه كان مغرورا : فالغرور مهماز التقدم ، وسر الكتابة والتأليف . وكان فولتير يتحكم فى غروره عادة ، فكثير ما نقح كتاباته استجابة لما يوجه إليه من مقترحات ونقد بروح طيبة . وكان سخيا فى ثنائه على المؤلفين الذين لا ينافسونه — كما رمونتيل ، ولا هارب ، وبومارشيه ، ولكنه قد يغدو غيورا غيرة صبيانية من مزاحميه ، كما نرى فى . « مديح كريبيون » (الأب) المفعم بالنقد الخبيث ؛ ويرى ديدرو أنه « يحمل ضغينة لكل قاعدة تمثال » (١٠٣) وقد دفعته غيرته إلى شتم روسو شتما مقذعا ، فوصفه بأنه « صبى الساعاتى » و « يهوذا خائن الفلسفة » و « كلب مسعور يعقر كل إنسان » و « مجنون وليد زواج صدفة بين كلبى ديوجين وايراسستراتوس . » (١٠٤) وذهب إلى أن النصف الأول من « جولى أو هلويز الجديدة » قد ألف فى ماخور ، والآخر فى مستشفى للمجاذيب ، وتنبأ بأن « إميل » سينسى بعد شهر . (١٠٥) وأحس أن روسو ولى ظهره لتلك الحضارة الفرنسية التى كانت رغم كل ذنوبها وجرائمها فى نظر فولتير خمر التاريخ ذاته .

وإذا كان فولتير مجرد أعصاب وعظام دون لحم يذكر ، كان أرهف حسا حتى من روسو . ولما كان حتما أن نحس بالآمنا حساسا أحد من إحساسنا بلذاتنا ، فإنه كان يأخذ المديح والاطراء قضية مسلمة ؛ ولكنه « يصاب باليأس » إذا وجه إليه نقد معاد . (١٠٦) وقلما أوتى من الحكمة والتعقل ما يضبط قلمه ؛ فكان يرد على كل معارض مهما صغر شأنه . وقد وصف هيوم بأنه إنسان « لا يغفر أبدا (؟) ، ولا يرى عدوا لا يستحق إهتمامه . » (١٠٧) وقد حارب خصومه الالداء كديفونتين وفريرون حربا لا هوادة فيها ؛ ولجأ إلى كل أسلوب فى الهجاء ، والسخرية ، والشتم ، وحتى لوى الحق بمكر . (١٠٨)

وكان غله يصدم أصدقاءه القدامى ويخلق له أعداء جددا . قال « إنى أعرف كيف أكره لأننى أعرف كيف أحب . »[١٠٩] « إننى بحكم طالعى أميل قليلا إلى الأذى »[١١٠] ؛ وهكذا حرك كل كتائبه بنجاح ليهزم ترشيح دى روس للأكاديمية (١٧٧٠) . وقد لخص الأمر بمزيج من خلق دارتنيان ورابليه :

« أما عن شخصى الضعيف ، فإنى أخوض الحرب حتى آخر لحظة — ضد الجانسنيين ، والمولنيين ، والفريرونيين ، والبومبنيانيين ، اليمينيين واليساريين ، والوعاظ ، وجان — جاك روسو . أتلقى مائة طعنة وأردها مائتين ، وأضحك .. حمداً لله ! إننى أنظر إلى العالم كله كأنه مهزلة (فارص) تستحيل مأساة أحيانا ، يستوى كل شىء آخر النهار ، وسيظل كل شىء سواء فى نهاية الأيام . »[١١١]

وفى عدائه للسامية حول على شعب بأسره ذلك الغيظ الذى ولدته خصوماته مع بعض أفراده . ومن زاوية تلك الذكريات فسر فولتير تاريخ اليهود ، فسجل عليهم أخطاءهم بتدقيق وتفصيل ، ونذر أن برأهم لعدم كفاية الأدلة على إدانتهم . ولم يستطيع أن يغتفر لليهود إنجابهم المسيحية . « حين أرى المسيحيين يلعنون اليهود يخيل إلى أننى أرى أبناء يضربون أباءهم . »[١١٢] ولم يكد يتبين فى العهد القديم شيئا سوى سجل للقتل ، والفسق ، والاغتيال بالجملة ، ورأى فى سفر الأمثال « مجموعة من الحكم التافهة ، القذرة ، المهلهلة ، المجردة من الذوق ، أو الاختيار ، أو الهدف » ، أما نشيد الإنشاد فهو فى نظره « قصيدة حماسية سخيفة » .[١١٣] على أنه أثنى على اليهود لإنكارهم القديم للخلود ، ولامتناعهم عن التبشير بعقائدهم ، ولتسامحهم النسبى ؛ فالصدوقيون أنكروا وجود الملائكة ، ولكنهم لم يعانوا من أى اضطهاد بسبب هرطقتهم .

أكانت فضائله ترجح رذائله ؛ أجل ، حتى ولو لم نضع فى الميزان صفاته العقلية مع صفاته الخلقية . فأمام شحه يجب أن نضع سخاءه ، وأمام محبته للمال تقبله البشوش للخسائر واستعداده لاقتسام مكاسبه مع غيره . استمع إلى كوللينى ، الذى لابد قد عرف عيوبه لأنه عمل سكرتيراً له سنين كثيرة :

« ما من دعوى أكذب من تهمة البخل التى يرمى بها ... فلم يكن للبخل مكان فى بيته . وما عرفت رجلا يستطيع خدمه أن يسرقوه بسهولة أكثر . لقد كان ضنينا بوقته فقط ... وكان له فى أمر المال المبادىء التى يهتدى بها فى أمر الوقت ؛ فمن الضرورى فى رأيه أن تقتصد لكى تسخو فيه . »(١١٤)

وتكشف رسائله عن بعض الهبات الكثيرة التى وزعها ، دون أن يعلن عن اسمه عادة ، لا على أصدقائه ومعارفه فحسب ، بل حتى على أشخاص لم يرهم قط .(١١٥) وسمح لباعة الكتب أن يحتفظوا بالربح الذى يجنونه من كتبه . وقد رأيناه يسدى العون للآنسة كورنيي ؛ وسنراه يساعد الآنسة فاريكور . ورأيناه يعين فوفنارج ومارمونتيل ؛ كذلك فعل مع لاهارب ، الذى فشل مسرحيا قبل أن يغدو أقوى نقاد فرنسا أثرا ، فطلب فولتير أن يعطى نصف معاشه الحكومى البالغ ألفى فرنك للاهارب دون أن ينبئه بحقيقة المعطى .(١١٦) كتب مارمونتيل « يعلم الجميع مبلغ العطف الذى كان يحبو به الشبان الذين يبدون أى موهبة للشعر . »(١١٧)

وإذا كان فولتير الواعى بضآلة جسيمة ، لم يؤت شجاعة بدنية تذكر (إذ ترك الكابتين بورجار يضربه بالعصا عام ١٧٢٢) ،(١١٨) فإنه أوتى من الشجاعة الأدبية قدرا مذهلا (فقد هاجم أقوى مؤسسة فى التاريخ ، وهى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية) . وإذا كان عنيفا فى الخصومة ، فإنه كان سريع العفو عن خصومه الذين يسعون إلى الصلح معه ، « فكان غضبه يزول لأول رجاء . »(١١٩) وكان يغدق الحب على كل من طلبه ، وكان وفيا لأصدقائه . فلما افترق عن فاجنيير بعد عشرة أربعة وعشرين عاما « بكى كالأطفال . »(١٢٠) أما عن فضيلته فى أمور الجنس فقد كانت فوق مستوى جيله مع مدام دوشاتليه ، ودون ذلك المستوى مع ابنة أخته . وكان متسامحا مع الفوضى الجنسية ، ولكنه يغضب غضبة مضرية على الظلم . والتعصب ، والاطهاد ، والنفاق ، وفظاعات قانون العقوبات . وقد عرف الفضيلة بأنها « البر بالبشر . » أما فيما عدا ذلك فكان يسخر من المحظورات ، ويستمتع بالخمر ، والنساء ، والغناء ، فى قصد فلسفى . وفى أقصوصة سماها « بابابيك »

رفض الزهد بما هو معهود فيه من تهكم موجع . فترى أومنى يسأل البرهمى « أهنالك أمل فى أن يبلغ فى النهاية السماء التاسعة عشرة ؟ »

ويجيب البرهمى « هذا يتوقف على نوع الحياة التى تحياها . إنى أحاول أن أكون مواطنا صالحا ، وزوجا صالحا ، وأبا صالحا ، وصديقا صالحا ، وأحيانا أقرض المال بغير ربا للأغنياء ، وأتصدق على الفقراء ، وأحفظ السلام بين جيرانى . » فيسأل البرهمى « ولكن أتغرز المسامير أحيانا فى عجزك ؟ .

« أبداً يا أبى المبجل »

ويجيب البرهمى « إذن فأنا آسف ، لأنك لن تبلغ السماء التاسعة عشر ، ما فى ذلك ريب . »[١٢١]

أما فضيلة فولتير المتوجة لفضائله المكفرة عن سيئاته ، فهى إنسانيته . لقد حرك ضمير أوربا بحملاته دفاعا عن آل كالاس وسيرفنس . وشهر بالحرب باعتبارها « الوهم الكبير » . « فالأمة الغالبة لا تفيد إطلاقا من أسلاب الأمة المغلوبة ؛ وهى تدفع ثمن كل شىء ، وتعانى حين تنتصر جيوشها قدر معاناتها حين تنهزم . »[١٢٢] وأياً كان الفريق المنتصر ، فإن الإنسانية خاسرة على الحالين» . وقد ناشد الناس فى شتى الظروف والأقطار أن يتذكروا أنهم أخوة ؛ واستمع الناس إلى ذلك النداء بشكر وعرفان فى مجاهل أفريقيا .[١٢٣] كذلك لم تصدق عليه التهمة التى وجهها روسو للذين بشروا بحب البشر ووسعوا هذا الحب توسيعا لم يترك فيه مكانا لجيرانهم ؛ فكل الذين عرفوه تذكروا عطفه ومجاملته لأقل الأشخاص المحيطين به شأنا . كان يحترم كل نفس ، عارفا حساسيتها لأنه يعرف حساسيته .[١٢٤] وقد واصل كرم ضيافته رغم ما فرض عليها من مطالب باهظة . كتبت مدام دجرافينى « كم تأثرت حين وجدت فيك من الطيبة مالا يقل عما فيك من العظمة ، ورأيتك تفعل لكل من يحيطون بك الخير الذى كنت تود أن تفعله للبشرية جمعاء . »[١٢٥] وكان أحيانا

نزقا يتفجر غضبا ، ولكن « لا يمكن أن تتصور أبدا مبلغ ما فى قلب هذا الرجل من طيبة كما كتب عنه زائر آخر (٢٦)

وإذ ذاع صيت العون الذى يسديه للمضطهدين فى أوربا ، وانتشرت الأنباء فى فرنسا عن بره وإحساناته المستورة ، تشكلت صورة جديدة لفولتير فى ذهن الجماهير . فلم يعد عدو المسيح ، ولا المحارب لدين يحبه الفقراء ؛ بل أصبح منقذ آل كالاس ، وسيد فرنيه الطيب ، والمدافع عن عشرات من ضحايا العقائد المتزمتة والقوانين الظالمة . وقال قساوسة جنيف إنهم حائرون فى موقفهم وإياه فى يوم الحساب ، فهل إيمانهم بعدل أعمال هذا الزنديق . (١٢٧) وغفر له المثقفون رجالا ونساء زندقته ، ومشاجراته ، وغروره ، لا بل خبثه . ورأوه يتحول من الخصومة إلى السماحة ، فنظروا إليه الآن نظرتهم إلى الأب الجليل للآداب الفرنسية ، وفخر فرنسا أمام العالم المثقف . ذلك هو الرجل الذى رحبت حتى جماهير العامة بمقدمه حين جاء إلى باريس ليموت .

* * *